العربيّة وفلسفة الإعراب

اللغة العربية : من اللغات العريقة المنبت الواسعة الأفق اتسعت فأحاطت بأبعد انطلاقات الفكر وارتفعت حتى صعدت ارقى اختلاجات النفس .

ولقد زادتها مرونتها تبلورا وتفاعلا ونماء وقدرة على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الذي تعيشه الانسانية فى مسيرتها .

وكان لها عبر الزمن الاصالة الجاهدة المولدة المعطاة والميزات المطواعة المتطورة .

وانك لتحسن هذا فى كلماتها التي تمثل خطرات النفوس ونبضات القلوب ، وكل كلمة لها فى الجملة مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها .

ولهذا صارت ـ بفعل عوامل مختلفة ـ لغة حية بارزة ، ذات دلالة ووضوح ، وزادها متانة وابانة وافصاحا عن المعاني : الاعراب .

والعربية لغة تتوخى الايضاح والاصالة والاعراب باحدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية : غاية الايضاح والافصاح عن صلات الكلمات العربية بعضها ببعض ، وعن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة لها .

وفى اللغات الخالية من الاعراب يعتمد اهل اللغة على القرائن وعلى اضافة كلمات الى الجملة لفهم المقصود من المعاني ولكن الاعتماد على القرائن ربما لا يطرد ـ كما يقول صاحب الطراز ـ فأوجبت العربية التفريق بين الفاعل والمفعول والا وقع اللبس والابهام.

والاعراب : مصدر أعربت عن الشيء اذا أوضحت عنه . ويقال : فلان معرب عما فى نفسه اى مبين له وموضح عنه ومنه : عربت الفرس تعريبا اذا بزغته . وذلك بأن تنسف اسفل حافره .

ومعناه : انه قد بان بذلك ما كان خفيا من امره لظهوره الى مرآة العين بعد ما كان مستورا وبذلك تعرف حاله أصلب هو أم رخو ، أصحيح هو أم سقيم، وغير ذلك .

واصل هذا كله قولهم : « العرب » وذلك لما يعزى اليه من الفصاحة والاعراب والبيان ، ومنه قولهم فى الحديث : « الثيب تعرب عن نفسها » .

والمعرب صاحب الخيل العراب وعليه قول الشاعر :

ويصهل فى مثل جوف الطوى
صهيلا تبين للمعرب

اى اذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم انه عربي ومنه : العروبة . والعروبة الجمعة ، وذلك ان يوم الجمعة اظهر امرا من بقية الاسبوع لما فيه من التاهب لها والتوجه اليها وقوة الاشعار بها ، قال الشاعر العربي القديم :

يوائم رهطا للعروبة صيما

ولما كانت معاني المسمين مختلفة كان الاعراب الدال عليها مختلفا ايضا . وكأنه من قولهم : « عربت معدته » اى فسدت . كأنها استحالت من حال الى حال ، كاستحالة الاعراب من صورة الى صورة .

الاعراب اذن مطلب العقل فى اللغة ولذلك يرى بعض الباحثين والدارسين من علماء مقارنة اللغات أن الاعراب ارقى ما وصلت اليه اللغات فى الوضوح

والابانة وهذه المرتبة قد بلغتها العربية الفصحى ولا يشاركها فيه من اللغات القديمة الا اليونانية واللاتينية ولا يشاركها فيه من اللغات الحديثة الا الالمانية .

اما اللغات الآرية الحديثة ـ وتشمل معظم لغات اوربا الحديثة ـ فقد خلت من حالات الاعراب ولا مميز فيها بين الرفع والنصب والجر وانما يقوم مقامها الحاق ادوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر او بتقديم الالفاظ وتأخيرها مما لا يخرج عن الوضع ، الخارجي في المكان هذا ، في حين ان اللغة العربية قد استلزمت من اول الامر ـ ما دام الاعراب مرعيا ـ ان يكون الفكر الواعي محددا للوضع الخارجي وان يكون النظر الى المعنى هو المبرر للتقديم والتأخير وتأكيد الاسناد وغير ذلك ، الا ترى انك اذا سمعت : اكرم سعيد اباه وشكر سعيدا ابوه . علمت برفع احدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولو كان الكلام نوعا واحدا لاستبهم احدهما من صاحبه .

فبالاعراب يعرف الخبر من الانشاء والمفعول من الفاعل وبه يتميز المضاف من المنعوت والتعجب من الاستفهام والنعت من الحال الى غير ذلك .

وبالجملة : فتميز اغراض المتكلم عند السماع يكفي فيه الاعراب ، فالاعراب في مثل (ما احسن زيد يفرق بين الاغراض الثلاثة الممثلة فيه ، فاذا قلت : ما احسن زيد « بفتح نون احسن وضم دال زيد » كانت «ما» نافية، وانت تريد ان زيدا لم يحصل منه احسان.

واذا قلت « ما احسن زيدا » بفتح النون والدال كانت « ما » تعجبية ، وانت تريد ان شيئا عجيبا جعل زيدا حسنا .

واذا قلت « ما احسن زيد » بضم النون وكسر الدال ، كانت « ما » استفهامية ، وانت تريد معرفة اي شيء حسن في زيد علمه ام ادبه ام اخلاقه .. الخ.

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز فبالحركة يقولون : مفتح للالة بكسر الميم وفتح التاء و « مفتح » بفتح الميم لموضع الفتح ، وللفتح نفسه .

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز بتاء التأنيث وعدمها . فيقولون امراة طاهر بدون التاء اذا ارادوا طاهرة من الحيض ، لان الرجل لا يشاركها فيه ، واذا ارادوا طهارتها من العيوب الخلقية ، قالوا امراة طاهرة ، لان الرجل يشاركها فيها ، فيحتاجون الى التمييز بينهما ، ومثله امراة قاعد اذا اثقلها الحبل وقاعدة من القعود ، اي جالسة لان الرجل يشاركها فيه فيقال : رجل قاعد ويروى ان رجلا دخل على امير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ فقال له : من غير اعراب : « قتل الناس عثمان» فقال له امير المؤمنين : « بين الفاعل من المفعول رض الله فاك » .

وبنت ابي الاسود الدؤلي وقفت مرة تشاهد السماء وتتعجب لجمالها . فقالت لابيها : « ما احسن السماء » ، فقال ابوها : نجومها ، فقالت « ما عن هذا اسأل وانما انا اتعجب » فقال لها اذن قولي « ما احسن السماء » وافتحي فاك . وسمع ابو الاسود قارئا يقرأ قوله تعالى : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام في رسوله ، فأكبر ابو الاسود ذلك وقال : عز وجه الله ان يبرأ من رسوله .

وكان هذا سببا في وضع علامات الاعراب للمصحف بأمر زياد .

ويروي ابن قتيبة ان رجلا من الخوارج مدح رئيسهم شبيبا بن يزيد الخارجي بقصيدة جاء في بيت منها :

ومنا سويد والبطين وقنعب
ومنا امير المؤمنين شبيب

فأخذه عبد الملك بن مروان وسأله وهو يحاكمه عن هذا البيت فقال لم اقل هذا بل قلت : ومنا امير المؤمنين شبيب » بفتح الراء في امير اي يا امير المؤمنين ، فأمر بتخلية سبيله .

وقد اشار ابن خلدون في مقدمته الى الاعراب عند العرب فقال : ان كلامهم ـ اي العرب ـ واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة ، الا ترى ان قولهم : زيد جاء في مغاير لقولهم : جاءني زيد . من قبل ان المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم .

فمن قال : زيد جاءني افاد ان اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذلك التعبير عن اجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول او مبهم او معرفة ، وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا لقائم ، متفايرة كلها في الادلة ، وان استوت من طريق الاعراب فان الاول العاري عن التأكيد انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر .

وكثير من كواكب الاستشراق وعلماء اللغات . نوهوا بخصيصة الاعراب فى العربية ، قال العلامة : « بركلمان » عند حديثه عن لغة الشعر العربي :

لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بثروة عظيمة من الصور النحوية وبلغت من حيث دقة التعبيـــر عن علامات الاعراب والنحو ذروة التطـــور فى اللغـــات الساميـــة .

وقال البحاثة : « لوى مسينيون » فى حين ان اللغة السريانية قد نقلت اجروميتها عن اللغة اليونانية نقلا صرفا ، استطاعت لغة الضاد ان تشيد بناء ضخما من الاعراب يضع أمام الابصار مشهدا فلسفيا ذا روعة واصالـــة .

فاللغة العربية لها من الخصائص لافهام المعاني الدقيقة والمعاني الثانوية التي تصل الى نهاية الابداع وكمال الصنع ما يملك على السامع مشاعره ويستخدم حواسه ويدفعه حيث يشاء .

والاعراب فى ذاته فلسفة لغوية تضع كل شيء فى مكانه الملائم له وتعطي كل ذي حق حقه .

فلا ابهام ولا لبس ولا غموض ولا تعقيد . بـــل وضوح وابانة وهدى وافصاح .